الخليج

الرأي, مقالات

3 يوليو 2022 00:12 صباحا

تحية إلى رفاق الثورة والسلاح

الكاتب

عبدالله السناوي

بتقادم السنين قد تبهت في الذاكرة العامة المعاني الكبرى التي قاتلنا من أجلها ذات يوم، كأن أجيالاً كاملة لم تحلم باستقلال الجزائر، وعروبة الجزائر.

في معركة التحرير، التي امتدت بين عامي 1954 و1962، استُشهد مليون ونصف المليون، كان ذلك ملهماً بذاته وداعياً للتساؤل عما يمكن أن يفعله أي عربي من أجل الجزائر.

في 5 يوليو 1962، قبل ستين سنة بالضبط، نالت الجزائر استقلالها بدماء شهدائها بعد 130 سنة من الاحتلال الفرنسي، الذي مارس بحق شعبها أبشع الجرائم والمجازر دون أن يعتذر حتى الآن.

«الحمد لله الذي أعطانا هذه الفرصة لنرى الأماني وقد تحققت.. الحمد الله فقد كنا نحلم بالجزائر العربية وقد رأينا اليوم الجزائر العربية». بتلك الكلمات ابتدأ جمال عبدالناصر خطاباً مقتضباً ألقاه في العاصمة الجزائرية يوم ٤ مايو ١٩٦٣. ولم يَمنّ على الثورة الجزائرية بحرف واحد، أو بإشارة عابرة.

لا قال إننا أمددنا الجزائر بالسلاح، ولا ناصرناها بالمال، ولا ساعدنا ثورتها في بناء أطرها السياسية والعسكرية، ولا أن فرنسا شاركت في حرب السويس للانتقام من دورنا في نصرتها. قال نصاً: «جمال عبدالناصر لم يفعل أي شيء لشعب الجزائر».

لم يكن ذلك صحيحاً على أي وجه، لكنه خاطب الكبرياء الجزائري. كانت الجزائر تعرف الحقيقة وتقدرها، ولم تكن في حاجة إلى من يذكرها.

في خطابه المقتضب أشار إلى المعنى القومي الكبير لاستقلال الجزائر، وركز أغلبه على القضية الفلسطينية.

في الكلام إدراك عميق لطبيعة الشخصية الجزائرية، التي تنفر من المنّ عليها. في ذلك اليوم الاستثنائي زحف مليون جزائري من أنحاء البلاد إلى العاصمة لرؤيته، افترشوا الطرقات العامة وناموا فوقها بالقرب من الميناء، ملايين أخرى سدت الطرق وكادت تحطم السيارة التي كان يستقلها مع الرئيس أحمد بن بيلا، فاضطرا لأن يصعدا إلى أعلى عربة

مطافئ مضت بين الجموع الحاشدة.

كان انفصال الوحدة المصرية السورية قد وقع لكن المشروع ظل ملهماً. كان الجرح لا يزال غائراً لحظة تحرير الجزائر لكنه تبدى حلم جديد.

المعنى أكبر من الرجل والحلم- حتى لو انكسر- أبقى في ذاكرة التاريخ. المشهد التاريخي يقرأ في سياق تحدياته ومعاركه وعصره، وقد كان عصر التحرر الوطني.

في وقت مقارب تحررت القارة الإفريقية من ربقة الاستعمار.. كان دور القاهرة محورياً في قيادة القارة. وكان تأثيرها نافذاً في آسيا وأمريكا اللاتينية.

لهذا السبب- بالذات- جرى الترصد للمشروع الناصري والعمل على اصطياده من بين ثغرات نظامه، أو باستخدام القوة المسلحة، كما حدث في يونيو 1967.

في أيام الهزيمة نهضت الجزائر للوقوف بجانب مصر. ذهب الرئيس الجزائري هواري بومدين إلى موسكو، وتفاوض على شحنات أسلحة عاجلة، عرض دفع ثمنها فوراً لكن ليونيد بربجينف الرجل القوي في الكرملين كان له تقدير آخر، أن هناك التزامات على الاتحاد السوفييتي تجاه مصر. ثم قاتل لواء جزائري مع الجيش المصري في حرب أكتوبر ١٩٧٣. في تلك الحرب تأكدت مرة أخرى رفقة السلاح.

بدأت إذاعة «صوت العرب» أعظم معاركها، ألهمت وأثرت وكانت المتحدث الإعلامي الرسمي باسم ثوار الجزائر، اكتسب مؤسسها أحمد سعيد شعبية كبيرة في العالم العربي باعتباره صوت الثورة الجزائرية، التي استقطبت المشاعر حولها.

تقدمت مصر لنصرة قضية الجزائر بكل ما تملك وتقدر عليه من دعم مالي وسياسي وعسكري وإعلامي وفني.

تحول «صندوق أحمد سعيد»، كما كان يطلق على جهاز الراديو في العالم العربي، إلى أيقونة للثورة وصوته واصل إلى كل بيوت الصفيح وفوق جبال «الأوراس».

كان يوم الجمعة الثاني من يوليو عام ١٩٥٤ أول إطلالة للزعيم الجزائري أحمد بن بيللا على أثير «صوت العرب». «أخ جزائري في حديث من العقل والقلب إلى الضمير والوجدان»..هكذا قدمه أحمد سعيد.

لم يكن أحد يعرف اسم قائد الثورة، التي توشك أن تعلن. «أحدثكم من صوت العرب من القاهرة مدينة الأزهر الشريف». كانت تلك الجملة الأولى في بيان إعلان الثورة الجزائرية.

مال عبدالناصر إلى اعتقاد راسخ في النظر إلى العالم العربي، قضاياه وأزماته، يربط ما بين تطلعات المصريين للاستقلال الوطني في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتطلعات العرب للهدف ذاته.

إنها وحدة المصير العربي.. هكذا بكل الوضوح وكل الحسم. كان ذلك الاعتقاد أساس الدور الإقليمي المصري في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

في معركة الجزائر تأكد الدور المصري في عالمه العربي بلا مَنّ أو ادعاء. القاهرة تابعت أدوارها من الرصاصة الأولى في نوفمبر ١٩٥٤ حتى استقلت الجزائر في يوليو ١٩٦٢ حاضرة في قلب التخطيط السياسي والإعلامي والعسكري شريكاً كاملاً في المعركة.

هذه الحقيقة صنعت رفقة ثورة ورفقة سلاح بين مصر والجزائر. كانت لشحنات السلاح المصرية، التي هُرّبت إلى جبال الجزائر عبر البحار أو الحدود الليبية، وتدريب المقاتلين عليها، دور محوري في حسم حرب التحرير.

كان هواري بومدين، الذي كان طالباً بجامعة الأزهر، أحد الذين تدربوا في القاهرة قبل أن يجري تهريبه إلى داخل الجزائر على متن يخت مصري يحمل شحنات سلاح.

بعد ستين سنة من انتصار الثورة الجزائرية فإن التحية واجبة لذكرى رفاق الثورة والسلاح، الذين أدركوا في الميدان معنى وحدة المصير العربي.

"حقوق النشر محفوظة "لصحيفة الخليج .2024 ©